التشويق في التعبير القرآني

دراسة دلالية في تفسير التحرير والتنوير

أ.م. د محمد هادي البعّاج
كلية التربية الأساسية / جامعة الكوفة
قسم اللغة العربية

الملـخّـص

تضمن القرآن الكريم مجموعة من الأساليب اللغوية التي تدل بقرينة السياق على إفادة التشويق. وقد استطاع ابن عاشور في مطويات تفسيره (التحرير والتنوير) أن يقف على تلك الأساليب باسطًا القول فيها، وقد اشتملت هذه الدراسة على اثني عشر محورًا هي ما يأتي: أولًا مجيء المشار إليه متأخرًا عن اسم الإشارة (كذلك)، ثانيًا عود الضمير على متأخرٍ لفظًا، ثالثًا الإبهام في الاسم الموصول، رابعًا عدم تعليق حصول جواب الشرط على حصول فعله، خامسًا أسلوب التقديم والتأخير، سادسًا العدول بين الأفعال، سابعًا بناء الفعل للمفعول، ثامنًا افتتاح السور بالاستفهام أو بالقسم، تاسعًا خروج الاستفهام من معناه الحقيقي إلى المجاز، عاشرًا أسلوب السؤال والجواب، الحادي عشر التطويل والإطناب، الثاني عشر الإجمال ثم التفصيل .

الكلمات المفتاحية :التشويق، التعبير القرآني. التحرير والتنوير

Summary

The Holy Qur'an includes a set of linguistic patterns that indicate a sense of suspense within a context. In the pamphlets of his interpretation of Al-Tahrer w Altanweer, Ibn Ashour was able to stand on these patterns and elaborate them in a clear way. This study has included twelve elements as follows: First, the non-explicit indicative coming later than the indicative noun (as well , also)«كذلك», secondly the attributed pronoun to the former noun, thirdly the ambiguity of the relative noun, fourth the independency of the occurrence of apodosis to the occurrence of protasis, fifth The style of foregrounding and backgrounding, sixth, the transition between verbs, seventh, the construction of the verb to the object, eighth, the opening of the Quranic surah with question or swearing, ninth, the use of interrogation for a rhetorical purposes, tenth, lengthening and exaggeration, the eleventh being general and then detailing, twelfth the question-and-answer style.

المقدمة

الحمدُ لله حمدًا يليقُ بجلالِهِ، وصلى الله على سيدنا محمدٍ النبي الأميّ وآلِهِ .

أمّا بعد، فلا ريب في أنّ مفسري القرآن الكريم استفرغوا ما بجهدهم من مخزون معرفي بغية استنطاق النص القرآني والكشف عن خباياه المطلقة، وقد استطاعوا إبّان ذلك إماطة اللثام عمّا تستوعبه آيات الله من أساليب لغوية وفيرة، بعضها يدل على الترغيب وبعضها على الترهيب وبعضها يفيد التعظيم وبعضها الآخر يفيد التحقير، ومن تلك الأساليب اللغوية أيضًا ما يفيد التشويق. وقد حاول ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) أن يُبرّز ملامح هذه الأساليب ويرسم خطوطها الدقيقة الدالة على التشويق، ولهذا وسمتُ البحث بـ **(التشويق في التعبير القرآني دراسة دلالية في تفسير روح المعاني)**.

إنّ المادة اللغوية الدالة على التشويق في تفسير (التحرير والتنوير) قضت بأن يقومَ البحثُ على تمهيد اختص بتعريف التشويق لغةً واصطلاحًا، واثني عشر محورًا انتظمت على وفق ما يأتي: أولًا مجيء المشار إليه متأخرًا عن اسم الإشارة (كذلك)، ثانيًا عود الضمير على متأخرٍ لفظًا، ثالثًا الإبهام في الاسم الموصول، رابعًا عدم تعليق حصول جواب الشرط على حصول فعله، خامسًا أسلوب التقديم والتأخير، سادسًا العدول بين الأفعال، سابعًا بناء الفعل للمفعول، ثامنًا افتتاح السور بالاستفهام أو بالقسم، تاسعًا خروج الاستفهام من معناه الحقيقي إلى المجاز، عاشرًا أسلوب السؤال والجواب، الحادي عشر التطويل والإطناب، الثاني عشرًا الإجمال ثم التفصيل .

وفي ختام مقدمتي، أقول بضرس قاطع إنّ كل ما ورد في هذا البحث

يتواءم مع قَدْرِ الباحث لا مع قَدْرِ القرآن الكريم، فإن حالفني التوفيقُ لخدمة كتاب الله فهذا مبلغ سعادتي، وإلّا فالله خيرُ غافرٍ وهو يتولى الصفحَ عن المذنبين .

التمهيد

تعريف التشويق لغةً واصطلاحًا:

1. التشويق لغة :

الشوقَ هو« نزاع النفس»[1] و«حركة الهوى»[2]، ويُقال: «شاقني حبُّها، وذكرُها يشوقني أي يهيج شَوْقي، فاشتقت»[3]، ويرى ابن فارس أنّ المعنى المركزي لمادة (شوق) «يدل على تعلُّق الشيء بالشيء» [4]، وأضاف أنّ«ذلك لا يكون إلاَّ عن عَلَق حُبّ» [5] .

وتأسيسًا على هذه النصوص اللغوية، يمكننا القول إنّ التشويق في اللغة يدل على التعلُّق بشيء تعلّقًا قلبيًا مع نزوع النفس إليه وميلها إلى كل ما يخصه.

2. التشويق اصطلاحًا :

لم يرد مصطلح التشويق عند أرباب النحو والصرف والصوت، بل لم يرد حتى عند البلاغيين، فليس «هناك فنٌ أو مجموعة مباحث أطلق عليها علماء البلاغة اسم التشويق، وإنّما يستنبط ذلك من الدلالة اللغوية للكلمة، ومن مجموع مرادفاتها... ومن الإشارات المبثوثة التي أدلوا بها في ثنايا كتبهم عن هذه الأساليب» [6]. ولكن يجدر بنا التنبيه على أنّ الباحث عبد الحفيظ أحمد في

دراسته الموسومة بـ (أساليب التشويق البلاغية في الأحاديث النبوية من خلال الصحيحين دراسة تطبيقية تحليلية) استطاع أن يضع تعريفين للتشويق، أحدهما عام والآخر بلاغي خاص، أما العام فهو «كل حركة أو تصرف استعمله المتكلم للفت انتباه المتلقين بغية التأثير بكلامه، فقد يكون هذا التصرف قوليًا وقد يكون غير ذلك» [7] ،وأما البلاغي فهو«كلُّ مسلك خطابي أضفى على الكلام حُسنًا ذاتيًا واستمال له قلوب متلقيه، شريطة أن يكون هذا المسلك من مباحث علوم البلاغة المعروفة»[8].

ويمكننا اعتمادًا على المادة اللغوية وعلى التعريفين المتقدمين أن نعرّف التشويق الخاص بهذه الدراسة بأنّه: كلُّ مسلك لغوي ابتدعه المتكلم بغية جذب انتباه المتلقي إلى النص وتشويقه إليه واستمالة قلبه لمعرفته .

أولًا/ مجيء المشار إليه متأخرًا عن اسم الإشارة (كذلك) :

يرى ابن عاشور أنّ مجيء المشار إليه متأخرًا عن اسم الإشارة (كذلك) يراد به التشويق إلى المشار إليه، وهذا ما صرّح به مفسّرًا قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ [البقرة: 143]، قال «والتحقيق عندي أن أصل: « كذلك » أن يدل على تشبيه شيء بشيء والمشبه به ظاهر مشار إليه أو كالظاهر ادعاءً، فقد يكون المشبه به المشار إليه مذكوراً ... وقد يكون المشبه به المُشارُ إليه مفهوماً من السياق»[9]، ثم قال بعدها :«والإشارة على هذا المحمل المشار إليه مأخوذ من كلام متأخر عن اسم الإشارة ... لأنه الجعل المأخوذ من ﴿**جَعَلْنَاكُمْ**﴾، وتأخير المشار إليه عن الإشارة استعمال بليغ في مقام التشويق»[10].

إنّ «كذلك» مكونة من كاف التشبيه، واسم الإشارة «ذلك»، وهذا يعني أنّها تتضمن أمرين مجتمعين معًا، هما: الإشارة بالنظر إلى أصلها، والتشبيه لدخول الكاف عليها. وهي تستعمل لعقد علاقةٍ مشابهةٍ بين المشار إليه (المشبه به) المتقدّم عليها ،و(المشبه) المتأخّر عنها، كقولنا: (الكذبُ ممقوتٌ وكذلك النفاقُ)، فـالمشار إليه «الكذب» هو المشبه به، وقد تقدم ذكره على «كذلك»، والمشبه هو «النفاق»، ووجه الشبه بينهما هو «المقت». فإذا أمعنا النظر في الآية نلحظ أنّه لم يتقدّم على «كذلك» مشارٌ إليه ملفوظٌ به، بل جاء المشار إليه وهو الجعل المأخوذ من ﴿**جَعَلْنَاكُمْ**﴾ متأخرًا عنها، وتأخيره مثلما صرّح ابن عاشور لإرادة التشويق ،إذ اعتاد المتلقي أن يكون المشار إليه مع «كذلك» متقدمًا عليها، فلما تأخّر ذكرُهُ تعلقت به النفس وتشوّقت إلى معرفته .

واتفق جمهورٌ من المفسرين على أنّ المشار إليه بـ « كذلك » غير مذكور، وإنما يوجد في سياق الآيات ما يدلّ عليه، لكنهم اختلفوا في تعيين المدلول عليه المفهوم من السياق، هل هو متقدّم على اسم الإشارة «كذلك» أو متأخّر عنه ؟ فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المشار إليه قد سبق ما يدل عليه في الآيات المتقدمة، ومنهم الطوسي[11] الذي يرى أن المشار إليه هو الهُدى المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿**يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [البقرة: 142]. وكذلك البغوي[12]، لكنّه يعتقد أن المشار إليه هو الاصطفاء وليس الهدى، وقد دُلّ عليه بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا**﴾ [البقرة: 130].

إنّ القولَ بأنّ المشارَ إليه غيرَ المصرح به مدلولٌ عليه في آيات متقدمة هو قولٌ لا يتناسب مع إفادة التشويق ؛ لأنّ التشويق يكمن في ترقب غير المعلوم، فإذا كان المشارُ إليه مفهومًا من كلام سابق فقد أصبح معلومًا، والأمر

المعلوم لا تشويق فيه.

ويعتقد طائفة من المفسرين[13] أن المشار إليه متأخرٌ عن «كذلك»، وهو الجعل المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾، لكنهم لم يشيروا البتة إلى أنّه يفيد التشويق. ويحسب أبو السعود أنّ تقديم اسم الإشارة وتأخير المشار إليه «الجعل» المفهوم من الفعل ﴿**جَعَلْنَاكُمْ**﴾ هو لإفادة القصر، قال: «أصل التقدير جعلناكم أمةً وسطًا جعلًا كائنًا مثل ذلك الجعل فقُدِّم على الفعل لإفادة القصر» [14] ولم يذكر أبو السعود أنّه أفاد تشويقًا.

ويعتقد الألوسي أنّ «كذلك» مقصود بها تثبيت ما قبلها، ولم يصرّح من قريب أو بعيد بأنّ تقديمها يراد به التشويقَ، يقول: «كذلك كثيرًا ما يُقصد بها تثبيت ما بعدها وذلك لأن وجه الشبه يكون كثيرًا في النوعية والجنسية كقولك: هذا الثوب كهذا الثوب في كونه خزًا أو بزًا ،وهذا التشبيه يستلزم وجود مثله وثبوته في ضمن النوع فأريد به على طريق الكناية مجرد الثبوت لما بعده»[15]. وأحسب أنّ مثال الألوسي لا ينطبق على الآية الكريمة ؛ لأنّ المشار إليه وهو (الثوب) قد تقدّم ذكره على اسم الإشارة، في حين أنّ المشار إليه في الآية لم يتقدّم له ذكرٌ .

وأظنّ، اتكاءً على المصادر التفسيرية التي طالعتها ونقبت فيها، أنّ ابن عاشور هو أول من صرّح بأنّ هذا الاستعمال اللغوي البديع المُبتنى على تأخير المشار إليه عن اسم الإشارة مقصودٌ به التشويق. فالقرآن الكريم غنيٌ بأساليب لغوية إبداعية لا تتكشّف إلّا لمن أعمل ذهنه في كتاب الله وسبر أغوار آياته لاستخراج ما عنّ له منها، وقد استطاع ابن عاشور بفطنته الحادة أن يقتنص

من تأخير المشار إليه إفادة التشويق .

ثانيًا/ عودُ الضميرِ على متأخرٍ لفظًا:

عُرّف الضمير بأنّه «ما وُضِعَ لمتكلمٍ أو مخاطبٍ أو غائبٍ، تقدّم ذكرُهُ معنًى أو لفظًا أو حكمًا» [16]، وهذا يعني أنّ عوده على متقدم شرطٌ أساسيٌ فيه، فإن عاد على متأخرٍ خالف الأصل، وهذه المخالفة تقتضي تحقيق هدف متوخى، وهذا الهدف على رأي صاحب التحرير والتنوير في بعض السياقات هو تحصيل التشويق إلى الاسم المؤخّر بعده، قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا**﴾ [يونس :61]، «وضمير «منه» إما عائد إلى «شأن» ... وإما عائد إلى «قرآن»، أي وما تتلو من القرآن قرآناً، فتكون «منه» للتبعيض، والضمير عائد إلى مؤخر لتحصيل التشويق إليه حتّى يتمكّن في نفس السامع» [17]. ويبدو لي أنّ عود الضمير على (القرآن) أرجح من عوده على (شأن) وإن كان هذا مخالفًا لأصل القاعدة النحوية ؛ وذلك لأنّ التلاوة تتناسب مع القرآن الكريم ولا تتناسب مع (شأن)، فضلًا عن ذلك فإنّ عود ضمير الغيبة «منه» على الاسم المتقدّم «شأن» يتقاطع مع دلالة التشويق .

ويكاد يجمع جمهور المفسرين[18] على أنّ الإضمار قبل الذكر في الآية الكريمة لتفخيم شأن القرآن، ولم يلتفتوا إلى إرادة التشويق التي ذكرها ابن عاشور فيما بعد.

وأرى أنّ دلالة تفخيم القرآن وتعظيم شأنه تتعاضد مع دلالة التشويق إليه، فكلما كان الاسم المؤخر عن الضمير مفخّمًا ومعظّمًا تمكّن من النفس أيما

تمكّن وزاد الشوق إليه، فكيف به إذا كان القرآن العظيم الذي تتشوق النفس دومًا إلى تلاوته وتهفو إلى الإنصات إليه .

ثالثًا/ الإبهامُ في الاسمِ الموصولِ:

تفرّد ابن عاشور برأيه في أنّ الإبهام الواقع في الاسم الموصول المقدّم (الذي) يُبتغى به التشويق، وذلك حين مضى يفسّر قوله تعالى:﴿**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ** ﴾ [فاطر:31]، قال: «﴿**مِنَ**﴾ بيانية لما في الموصول من الإبهام، والتقدير: والكتاب الذي أوحينا إليك هو الحقّ. فقُدِّم الموصول الذي حقه أن يَقع صفة للكتاب تقديماً للتشويق بالإبهام ليقع بعده التفصيل فيتمكن من الذهن فضْلَ تمكن »[19].

فتقديم الاسم الموصول يولّد الابهام الذي يُسفر بدوره عن التشويق، وكان من الممكن أن يُقال مثلما قدّر ابن عاشور: والكتاب الذي أوحينا إليك هو الحقّ، لكن هذه الصياغة اللغوية لن تحقق الإبهام، ممّا يُفضي إلي غياب التشويق المترتب عليه ؛ لأنّ وقوع (الذي) صفة لـ(الكتاب) سيجعل الاسم الموصول غير مبهم، ومع الوضوح يتلاشى التشويق في هذا الموطن.

رابعًا/ عدمُ تعليقِ حصولِ جوابِ الشرطِ على حصولِ فعلِهِ:

عُرِّف الشرطُ بأنّه:« وقوع الشيء لوقوع غيره»[20]، وعُرِّف كذلك بأنّه :« تعليق شيء بشيء بحيث إذا وُجِد الأول وُجِد الثاني»[21]، وهذا يعني أن تحقق جواب الشرط قائم على تحقق فعل الشرط ومرتبط بحصوله، فإن كان

الجواب قائمًا بنفسه وليس له تعلّقٌ بحدوث فعل الشرط من عدمه، كان تعليق ثانيهما بأولهما لفائدة دلالية هي تحصيل التشويق لجواب الشرط، وهذا ما يتضح من قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ [الرعد: 5]، الذي فسرّه ابن عاشور قائلا :« فليس المقصود من الشرط في مثل هذا تعليق حصول مضمون جواب الشرط على حصول فعل الشرط كما هو شأن الشروط لأن كون قولهم: ﴿**أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا**﴾ عجباً أمر ثابت سواء عجب منه المتعجب أم لم يعجب، ولكن المقصود أنه إن كان اتصاف بتعجب فقولهم ذلك هو أسبق من كل عجب لكل متعجب ... وفائدة هذا هو التشويق لمعرفة المتعجب منه تهويلاً له أو نحوه »[22]، ثم قال ابن عاشور عن تنكير ﴿**فَعَجَبٌ**﴾ بأنّه تنكيرٌ«يفيد معنى التعظيم في بابه تبعاً لما أفاده التعليق بالشرط من التشويق»[23].

إنّ فعل الشرط ﴿**تَعْجَبْ**﴾ سواء صدر عن النبي (ص) أم لم يصدر، فإنّ جواب الشرط ﴿**فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ** ﴾ متحقق ثابت، فإن كان الأمر كذلك فما فائدة تعليق جواب الشرط بفعله ؟ وجواب ذلك - كما صرّح ابن عاشور في النصين أعلاه-هو لإفادة التشويق للمتعجب منه ،وهو قولهم ﴿ **أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾. فإنّ هذا القول لعجيب صدوره عنهم بعد ما رأوا الآيات الجسام الدالة على عظيم قدرته، والتي تدل دلالة قطعية لا سبيل معها لتسرب الشك على أن من أنشأ هذه الآيات لمقتدر على إعادتهم للحياة بعد ما كانوا ترابًا.

خامسًا/ أسلوب التقديم والتأخير :

التقديم: «هو خلاف التأخير وهو أصل في بعض العوامل والمعمولات

ويكون طارئا في بعضها الآخر ومما يجب التقديم فيه هو أصل الفعل مع الفاعل والمبتدأ مع الخبر والفاعل مع المفعول به وبقية الفضلات والمكملات»[24]، أما التأخير فهو: «حالة من التغيير تطرأ على جزء من أجزاء الجملة وتوجب وضعه في موضع لم يكن له في الأصل»[25] .

وقد حفل القرآن الكريم بمواطن عدة للتقديم والتأخير جاءت مقصودة لدلالات معينة، وقد استطاع المفسرون إماطة اللثام عن كثير منها، وقد حذا ابن عاشور حذوهم عازيًا بعض مواطن التقديم والتأخير إلى إفادة التشويق. ويمكن تقسيم مواطن التقديم والتأخير المراد بها التشويق في تفسير (التحرير والتنوير) على ما يأتي :

1. **تقديم المسند على المسند إليه:**

حين ابتدأ ابنُ عاشور بتفسير قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [البقرة :8]، قال:«وقد كَثُرُ تقديمُ الخبر في مثل هذا التركيبِ ؛ لأنّ في تقديمه تنبيهًا للسامع على عجيب ما سيُذكَر وتشويقًا لمعرفة ما يتم به الإخبار، ولو أُخِّرَ لكان موقعه زائدًا لحصول العلم بأنّ ما ذكره المتكلم لا يقع إلّا من إنسان ... فذكرُ ﴿**وَمِنَ النَّاسِ**﴾ ونحوه في مثل هذا وارد على أصل الإخبار وتقديم الخبر هنا للتشويق إلى استعلام المبتدأ وليس فيه إفادة تخصيص»[26]، أي إنّ تقديم المسند، وهو الخبر ﴿**مِنَ النَّاسِ**﴾ على المبتدأ وهو الاسم الموصول ﴿**مَنْ**﴾ أفاد التشويق لمعرفة المسند إليه واستعلامه، فعند سماع قوله تعالى ﴿**مِنَ النَّاسِ**﴾ يصيبُ النفسَ شوقٌ لمعرفة ما سيتم الإخبار به عنه هؤلاء الناس. وما ذكره ابن عاشور من أنّ تقديم الخبر لا

يفيد التخصيص فيه نظرٌ، إذ من الممكن أن يكون التقديمُ دالًا على تخصيص الإخبار بالمنافقين، وهم «جماعة من الأوس والخزرج رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول يظهرون الإسلام ويسرون الكفر» [27] .

وبذلك يكون تقديم الخبر قد أفاد التشويق والتخصيص معًا، وسأسوق المثال الآتي إبانةً لذلك لو قال أستاذ لطلابه: (من الطلبة من غشَّ في الامتحان) فإنّ تقديم (من الطلبة) سيفيد أولًا تشويق الطلبة إلى معرفة من غشّ ؛ لأنّ من ديدن البشر عامةً أن يتشوقوا إلى معرفة ما يجهلونه، والثاني سيفيد تخصيص الغشّ بهذه المجموعة من الطلبة دون سواهم .

ومنه كذلك ما ذكره ابن عاشور بشأن تقديم الخبر في قوله تعالى :﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ**﴾ [فاطر :36]

قال: «وقُدِّمَ المجرور﴿ **لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ**﴾ على المسند إليه للتشويق إلى ذكر المسند إليه حتى إذا سمعه السامعون تمكن من نفوسهم تمام التمكن»[28]، ومراد ابن عاشور أنّ تقديم الجار والمجرور ﴿**لَهُمْ**﴾ على المبتدأ وهو النكرة المخصصة بالإضافة ﴿**نَارُ جَهَنَّمَ**﴾، يفيد التشويق إلى معرفة المبتدأ، ولو جاءت الآية على الأصل، والتقدير: الذين كفروا نار جهنم لهم، لما تحقق التشويق .

ويبدو لي أنّ التقديم أقرب إلى إفادة التخصيص منه إلى إفادة التشويق، والدليل على ذلك قوله تعالى :﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾، فقوله تعالى عن الذين كفروا:﴿**أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ يدل على تخصيص النار لهم. فضلًا عن أنّه ليس من المنطق أنّ

يتشوّق أيُّ إنسانٍ مؤمنًا كان أم كافرًا إلى سماع عذاب نار جهنم.

2. تقديم الجار والمجرور على المفعول به :

يعتقد ابن عاشور أنّ تقديم الجار والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ [الشرح :1]، يفيد التشويق، ويتضح ذلك من نصه الآتي: «وفي ذكر الجار والمجرور قبل ذكر المشروح سلوك طريقة الإبهام للتشويق فإنه لما ذُكر فعل ﴿ **نَشْرَحْ**﴾ عَلم السامع أن ثَمَّ مشروحاً، فلما وقع قوله: ﴿**لَكَ**﴾ قوي الإبهام فازداد التشويق، لأن ﴿**لَكَ**﴾ يفيد معنى شيئاً لأجلك فلما وقع بعده قوله: ﴿**صَدْرَكَ**﴾ تعين المشروح المترقَّب فتمكن في الذهن كمال تمكن» [29]، فتقديم الجار والمجرور على المفعول به أفاد الإبهام، والإبهام أفاد تشويق المتلقي إلى معرفة المشروح، ولو قيل: ألم نشرح صدرك لك، لما نتج عن ذلك إبهام ولا تشويق. وأحسب أيضًا أنّ افتتاح السورة بالاستفهام ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ**﴾ قد زاد التشويق إلى معرفة المستفهم عنه؛ لأنّ افتتاح أي كلام بسؤال مما يثير الفضول في السامع ويزيده شوقًا إلى الجواب.

سادسًا/ العدولُ بين الأفعال :

عرّف العكبري العدول بقوله: «هو أن يُقام بناءٌ مقام بناءٍ آخر من لفظه فالمعدول عنه أصل للمعدول» [30]، ولا غبار على أنّ إقامة بناء مقام بناء آخر موجبٌ لتحوّل الدلالة، باعث على إكساء اللفظ معنى جديدًا مستطرفًا، ولذا يعتقد ابن عاشور أنّ العدول من فعل الأمر إلى الفعل المضارع ينبثق عنه دلالة التشويق، وهذا ما أشار إليه عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ**

تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90]، يقول :«وذكر﴿ **يَأْمُرُ** ﴾،﴿ **وَيَنْهَى** ﴾، دون أن يُقال: اعدلوا واجتنبوا الفحشاء، للتّشويق»[31].

أي إنّ العدول من أفعال الأمر (اعدلوا، واجتنبوا)، إلى الفعلين المضارعين (يأمر، وينهى) للتشويق إلى المأمور به وإلى المنهي عنه ؛ لأنّ المتلقي حين يسمع قوله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ**﴾ سيتشوق إلى تلقّي ما يأمر به الله، وكذا لو سمع ﴿ **وَيَنْهَى** ﴾ سيتحمس إلى معرفة ما ينهى عنه الله، وهذا المعنى البديع لن يتحقق لو قيل (اعدلوا، واجتنبوا).

ومنه أيضًا العدول من الفعل المضارع (يضرب)إلى الفعل الماضي(ضرب) في قوله جلّ شأنه: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا**﴾ [الزمر:29]، يقول ابن عاشور: «ومجيء فعل﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ** ﴾ بصيغة الماضي مع أن ضَرْب هذا المثل ما حصل إلا في زمن نزول هذه الآية لتقريب زمن الحال من زمن الماضي لقصد التشويق إلى علم هذا المثل فيجعل كالإخبار عن أمر حصل لأن النفوس أرغب في علمه» [32].

إنّ ضرب هذا المثل قد وقع في وقت نزول الآية الكريمة، وهذا يستدعي أن يأتي الفعل مضارعًا لا ماضيا، ولكن ورد «التعبير عن ضرب المثل الواقع في حال نزول الآية بصيغة الماضي للتشويق إلى الإصغاء إليه، وهو من استعمال الماضي في الحال لتحقيق وقوعه»[33]، فالبشر من شأنهم أن يتشوقوا إلى سماع الأمثال، ولا سيما إذا كان بمثابة أخبار حاصلة وهم لا يعرفون بشأنه شيئا ولم يسمعوا به من قبل ولم يطلعوا عليه، وما قيل في هذه الآية المباركة

ينطبق تماما على قوله تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [النحل :112].

سابعًا/ بناءُ الفعلِ للمفعول:

ذكر النحويون أنّ الفاعل قد يُحذفُ ويُسند الفعل لغير فاعله ؛ لأسباب لفظية وأُخر معنوية(34)، ويبدو أنّ أسّ الحذف يعود في المقام الأول إلى المعنى، وأنّ الحذف لسبب لفظي - طلبًا للإيجاز والاختصار على سبيل المثال- تَبيعٌ له لاحقٌ به، ويرى ابن عاشور أنّ التشويق داعٍ معنوي يُحذف الفاعل لأجله، فقد ذكر حين شرع بتفسير قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾ [طه: 11-12] ما نصه :«بُنِي فعل النداء للمجهول زيادة في التشويق إلى استطلاع القصة، فإبهام المنادي يشوّق سامع الآية إلى معرفته فإذا فاجأه :﴿ **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ**﴾ عَلِم أنّ المنادي هو الله تعالى فتمكن في النفس كمال التمكن، ولأنّه أدخل في تصوير تلك الحالة بأنّ موسى ناداه مناد غير معلوم له، فحُكي نداؤه بالفعل المبني للمجهول»(35).

فحذْفُ الفاعلِ وبناءُ «نُودِيَ» للمفعول دلّا على أمرين، أولهما الجهل بالفاعل من جهة نبي الله موسى (عليه السلام)، فقد ناداه منادٍ مجهول غير معلوم بالنسبة له، ولو كان موسى يعرف المنادي بالتحديد، لما تطلب ذلك أن يخاطبه جلّ شأنه بجملة ﴿ **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ**﴾ المشتملة على مؤكدين « إنّ » والضمير «أنا»، والإتيان بمؤكدين دليل ناصع لا يدع مجالا للشك بأن موسى (عليه السلام) كان يجهل المنادي. وثانيهما التشويق لمعرفة المنادي من جهة

سامع الآية أو قارئها، فإنّ من يسمع أو يقرأ قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى**﴾ يلجُّ به الشوق لمعرفة المنادي وتتوقُ نفسه لبيان ماهيته .

وخليق بنا الإشارة إلى أنّه كان من الأنسب بابن عاشور أن يقول (بُنِي فعل النداء للمفعول) بدلا من قوله (بُنِي فعل النداء للمجهول) ؛ تأدبًا مع الذات الإلهية المقدسة.

ثامنًا/ افتتاحُ السورِ بالاستفهامِ أو بالقسم:

يرى ابن عاشور أنّ افتتاح بعض السور القرآنية باستفهام أو بقسمٍ يراد به التشويق إلى المستفهم عنه وإلى المقسوم عليه، ولذا عدّ افتتاح قوله تعالى :﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**﴾ [الغاشية :1]، بالاستفهام مقصودًا به التشويق، قال:«الافتتاح بالاستفهام عن بلوغ خبر الغاشية مستعمل في التشويق إلى معرفة هذا الخبر لما يترتب عليه من الموعظة، وكونُ الاستفهام بـ «هل» المفيدة معنى «قد»، فيه مزيد تشويق فهو استفهام صوري يكنى به عن أهمية الخبر بحيث شأنه أن يكون بلَغ السامع»[36]، ثم قال ابن عاشور بعدها مؤكدًا معنى التشويق: «وتعريف ما أضيف إليه ﴿**حَدِيثُ**﴾ بوصفه ﴿ **الْغَاشِيَةِ**﴾ الذي يقتضي موصوفاً لم يذكر هو إبهام لزيادة التشويق إلى بيانه الآتي ليتمكن الخبر في الذهن كمال تمكُّن »[37].

إنّ التشويق على رأي ابن عاشور تحصّل من ثلاثة أمور، هي: أولًا افتتاح السورة بالاستفهام وهو محور حديثنا، وثانيًا مجيء حرف الاستفهام «هل» بمعنى« قد»، وثالثًا حذف الموصوف (القيامة) وإبقاء صفته (الغاشية) مما نتج عنه إبهام زاد في التشويق إلى معرفة الموصوف المحذوف .

وانقسم جمهور المفسرين السابقين لابن عاشور حيال افتتاح السورة بالاستفهام بـ «هل» على قسمين ،الأول رفض أن تكون «هل» بمعنى «قد»، وذهب إلى أنّها باقية على معناها الاستفهامي، وقد تضمنت التعجيب الدال على التشويق إلى استماع الخبر[38]. والقسم الثاني عدّ «هل» بمعنى «قد»[39]، ولم يشر البتة إلى إفادتها التشويق .

ويبدو لي أن دلالة التشويق في الآية المباركة تعاور عليها أمران لا ثالث لهما، هما: افتتاح السورة بالاستفهام ؛ لأنّه داعٍ إلى «التشويق إلى استماعه والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التي حقها أن يتناقلها الرواة ويتنافس في تلقيها الوعاة من كل حاضر وباد» [40]. والأمر الثاني إبهام الموصوف ؛ بسبب حذفه وإبقاء صفته، فالنفس البشرية من ديدنها أن تتشوق إلى معرفة الموصوف المحذوف لا سيما مع ذكر صفته الدالة عليه.

أمّا القول بأن «هل» جاءت بمعنى «قد» لزيادة التشويق فمرفوض لمخالفته ظاهر القرآن الكريم وركونه إلى تأويل مستغنى عنه، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ حمل هل على معنى قد يعني أن هل أخذت حكم قد في إفادة التحقيق، والتحقيق لا يتناسب مع القول بالتشويق ؛ لأنه يدل على أن حدث الإتيان قد حصل وفُرغ منه، والأمر هذا لا تشويق فيه .

أمّا ما يخص افتتاح السورة بالقسم لإرادة التشويق، فقد جاء في (التحرير والتنوير) عند تفسير قوله تعالى: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ [البلد:1-4]، قول ابن عاشور :«ابتُدِئت بالقسم تشويقًا لما يرد بعده وأُطِيلت جملةُ القسم زيادةً في التشويق»

.(41)

وقمينٌ بي الإشارة إلى أنّي لم أجد أحدًا من جمهور المفسرين[42] الذين اطلعت على تفاسيرهم قد ذكر ما يترتب على القسم من إرادة التشويق، على الرغم من أنّهم – جزاهم الله خيرا- فصلّوا القول في الآية الكريمة ولا سيما في طريقة القسم المغايرة لما شاع من أَيْمَان في كلام العرب .

وممّا لا يشوبه الريب ولا يخالطه الشك أنّ الله تعالى لا يُقسم في القرآن الكريم إلّا إذا كان الأمرُ جللًا، وليس بنا حاجة إلى إيراد دليل لإثبات ذلك، فالقرآن بين أيدينا يثبت صحة هذا الرأي. فإذا طالعنا سورة البلد نلحظ أن الله جل شأنه استهلها بقسم غير شائع ﴿**لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾، ثم راح تبارك اسمُه يطوّل القسم بقوله: ﴿ **وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ**﴾ مما يثير في نفس المتلقي الرغبة والشوق إلى ما يرد بعد القسم من أمر هام وعظيم، ولو أنّ السورة ابتدأت بقوله تعالى ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ من دون افتتاحها بهذا القسم المطول وغير المألوف لما تحقق هذا التشويق .

تاسعًا/ خروجُ الاستفهامِ من معناه الحقيقي إلى المجاز:

ليس غريبًا في الموروث العربي أن يخرج الاستفهام من معناه الحقيقي إلى معان مجازية، وقد ساد ذلك في كتاب الله تعالى، مما دعا أساطين العربية ومنهم المفسرون إلى إجهاد أنفسهم توخيًّا لما ينجم عن هذا الخروج من دلالات، ولم يكن ابن عاشور غافلًا عن ذلك أو بمنأى عنه والدليل قوله:«وألفاظ الاستفهام تخرج عنه إلى معان كثيرة هي من ملازمات الاستفهام» [43]، وقد استطاع أن يلفت الأنظار في أكثر من موطن إلى تلك

الدلالات ومنها دلالة التشويق، وهذا ما ينصعُ عند تفسيره قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الصف :10]، قال :«والاستفهام مستعمل في العَرْضِ مجازاً لأن العارض قد يسأل المعروضَ عليه ليعلم رغبته في الأمر المعروض كما يقال: هل لك في كذا؟ أو هل لك إلى كذا؟ والعرض هنا كناية عن التشويق إلى الأمر المعروض، وهو دلالته إياهم على تجارة نافعة» [44]. أي إنّ الاستفهام بـ(هل) في هذا المختبر السياقي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى التشويق وهذا ما يتكشّف واضحًا من افتتاح الآية بنداء الذين آمنوا من دون غيرهم ؛ لأنّهم متشوقون دومًا لتلقف ما يريده الله منهم، وثانيا من الفعل (أدلكم) الذي يشي بأنّهم تائهون وبحاجة إلى من يرشدهم، لذا فهم يتتوقون إلى معرفة السبيل المنجية لهم، وثالثا من جعل العمل الصالح تجارة منجية تشويقًا لتحصيله .

وذهب الرازي وفاقًا للفراء إلى أنّ الاستفهام بمعنى الأمر، جاء في التفسير الكبير:« اعلم أن قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَدُلُّكُمْ**﴾ في معنى الأمر عند الفراء[45]، يقال هل أنت ساكت أي اسكت، وبيانه أن هل بمعنى الاستفهام ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً والحث كالإغراء والإغراء أمر»[46]. ويبدو لي أنّ ما ذكره الرازي من أنّ الاستفهام يتدرج أولًا ليصير عرضًا وحثًا، والحثُّ مشابه للإغراء، والإغراء نوعٌ من أنواع الأمر، ينطوي على تعقيدٍ كبيرٍ وليس فيه بيانٌ ووضوحٌ، والأولى منه حمل الاستفهام على التشويق، لا سيما وأنّه يتناغم كليًّا مع سياق الآية.

ومن الاستفهام المجازي المراد به التشويق أيضًا، ما جاء في قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ** ﴾ [القمر: 18-19]، قال ابن عاشور :«فالاستفهام مستعمل

في التشويق للخبر الوارد بعده ...لأنّ الاستفهام يستلزم طلب الجواب والجواب يتوقف على صفة العذاب وهي لَمّا تذكر فيحصل الشوق إلى معرفتها وهو أيضاً مكنى به عن تهويل ذلك العذاب. وفي هذا الاستفهام إجمال لحال العذاب وهو إجمال يزيد التشويق إلى ما يبينه بعده من قوله: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا**﴾ [القمر :19]»[47]. ومراد ابن عاشور أنّ الاستفهام في قوله ﴿**كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾ قد خرج لمعنيين متعاضدين ،هما: أولًا التشويق إلى معرفة صفة العذاب، وثانيًا تهويل العذاب وتعظيمه وتفخيمه.

ويكاد يجمع المفسرون الذين تعرضوا لدلالة الاستفهام في هذه الآية على معنى التعظيم، بيد أنّ بعضهم كالبيضاوي ضم إليه الوعيد[48]، وألحق به محمد الشوكاني والألوسي معنى التعجيب[49]، على حين اقتصر أبو السعود وعبد الرحمن الجوزي على التعظيم فحسب [50].

وأحسب أن التشويق بعيد ولا يمكن القول به إذا قصد ابنُ عاشور صدورَه عن أهل عاد ؛ إذ ليس من المعقول أن يتشوّق الإنسانُ لمعرفة خصائص العذاب الذي يتوعده الله به، بل إنّ النفس تود لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمدًا بعيدًا ؛ خوفًا من عذاب ذلك اليوم العظيم ولهذا فإنّ التعظيم والتهويل أنسب بالمقام ولاسيما وأنّ قوله تعالى ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ تكرر في سورة القمر أربع مرات بغية تهويل العذاب وتعظيم شأنه.

أما إذا كان ابن عاشور قاصدًا صدور التشويق عن المسلمين فيمكن قبول رأيه، على اعتبار أن الله تعالى حينما ذكر قصة هذه الأمة السالفة سيتشوّق قارئ القرآن وسامعه إلى معرفة عاقبة هذه الأمة وما نوع العذاب الذي أُهْلِكوا به.

عاشرًا/ أسلوب السؤال والجواب :

يحسب ابن عاشور أن انتهاج أسلوب السؤال والجواب في بعض الآيات القرآنية مقصودٌ به التشويق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ**﴾ [النبأ:1-2]، قال ابن عاشور :« افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم افتتاح تشويقٍ»[51]، ثم قال بعدها: «والاستفهام بما في قوله: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ ليس استفهاماً حقيقياً بل هو مستعمل في التشويق إلى تلقي الخبر نحو قوله تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ**﴾ [الشعراء: 221]. والموجَّه إليه الاستفهام من قبيل خطاب غير المعين » [52].

يمكننا أن نلحظ أنّ مبدع النص القرآني صاغ التشويق إلى النبأ العظيم عن طريق انتهاج أسلوب السؤال والجواب، إذا كان من الممكن أن يقال مباشرة: (يتساءلون عن النبأ العظيم) بدل ﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ**﴾،إلّا إنّ هذه الصياغة الخبرية تفوّتُ التشويق الكامن في السؤال والجواب ،إذ من شأن السؤال الهام أن يثير الفضول في نفس المتلقي ويشوقه إلى معرفة الجواب. وما قيل في سورة النبأ، يمكن أن يُكرر نفسه في سورة الشعراء التي ذكرها ابن عاشور، فقوله تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ**﴾، سؤال مجازي يشوّق المتلقي إلى سماع الإجابة ﴿**تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾[الشعراء: 222]، ولو كانت صياغةُ الآيةِ خبريةً، كأن يُقال: تَنَزّل الشياطينُ على كلِّ أفاك أثيم، لما تحققت دلالة التشويق الحاصلة في السؤال والجواب .

الحادي عشر/ التطويلُ والإطنابُ:

آثرت استعمال مصطلحي التطويل والإطناب معًا مشايعة لابن عاشور

ومتابعة لمنهجه القائم على عدم التفريق بينهما -كما سيتضح فيما بعد-. ويُقصد بالتطويل بحسب تعريف علي بن محمد الجرجاني: «هو أن يزاد اللفظ على أصل المراد»[53]، على حين عرّف الجرجاني الإطناب بأنّه :«أداء المقصود بأكثر من العبارة المتعارفة، وأن يخبر المطلوب بمعنى المعشوق بكلامٍ طويل ؛ لأنّ كثرة الكلام عند المطلوب مقصودة ؛ فإن كثرة الكلام توجب كثرة النظر» [54]، ثم نقل الجرجاني تعريفًا آخر للإطناب يطابق تعريف التطويل تمامًا، قال: «قيل الإطناب أن يكون اللفظ زائدا على أصل المراد» [55]. ويرى ابن عاشور بحسب النصوص الآتي ذكرها أنّ النص القرآني يشتمل على مواطن تطويلٍ يُقصَدُ بها التشويق، ومن ذلك ما يأتي:

1. تطويل المسند إليه بالإضافة وتعقيبه بالجملة الاعتراضية :

عند تفسير قوله تعالى: ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [السجدة :2]، قال ابن عاشور: «وجيء بالمسند إليه معرفاً بالإضافة لإطالته ليحصل بتطويله ثم تعقيبه بالجملة المعترضة التشويقُ إلى معرفة الخبر وهو قوله ﴿**مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ ولولا ذلك لقيل: قرآن منزل من رب العالمين أو نحو ذلك» [56]، فالتطويل في هذه الآية المباركة نجم عن إضافة ﴿**تَنْزِيلُ**﴾ إلى ﴿**الْكِتَابِ**﴾ ثم الإتيان بالجملة الاعتراضية ﴿**لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾، وقد ترتب على هذه الإطالة تشويق المتلقي إلى الخبر الذي جاء في نهاية الآية، وهو قوله تعالى ﴿**مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، ولولا ذلك لكان من الممكن أن يُقال بأسلوب مختصر جدًا لا خلل فيه (القرآنُ من ربِّ العالمين) أو كما قدّر ابن عاشور: قرآنٌ منزلٌ من ربِّ العالمين.

2. تطويل القسم:

حين شرع ابن عاشور في تفسير قوله تعالى **:﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾** [الفجر :1-4]، **قال :**«والمقصد من تطويل القسم بأشياء، التشويقُ إلى المقسم عليه»[57]، فقد افتتح الله تعالى هذه السورة بالقسم قائلا **﴿وَالْفَجْرِ﴾**، ثم أردفه بثلاثة أقسامٍ عظيمة **:﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾**، ولا ريب في أنّ الإتيان بأربعة أقسام متتابعة تطويلٌ وإطنابٌ يشّوق السامع إلى معرفة المقسم عليه.

3. تطويل المبدل منه بالبدل:

قال ابن عاشور مفسرًا قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾** [الكهف :103-104]، «وقوله **﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾** بدل من **﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾** وفي هذا الإطناب زيادة التشويق إلى معرفة هؤلاء الأخسرين حيث أجرى عليهم من الأوصاف ما يزيد السامع حرصًا على معرفة الموصوفين بتلك الأوصاف والأحوال»[58].

وأرى أنّ التشويق في هذه الآية لم ينشأ من تطويل المبدل منه بالبدل فحسب، بل تولّد أيضًا من افتتاح الآية بالاستفهام **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾** الذي يثير في نفس السامع الشوق والفضول لمعرفة من وُصِفَ بهذه الصفات.

الثاني عشر/الإجمال ثم التفصيل:

يرى ابن عاشور -كما سيتكشّف من النصوص اللاحقة- أنّ الأخبار

المجملة تفيد التشويق إلى تفاصيلها ؛ لأنّ «المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها به أتم» [59]، ولهذا عندما وصل إلى تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى** ﴾ [الليل :4]، قال ابن عاشور: «وفي قوله: ﴿**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**﴾ إجمال يفيد التشويق إلى تفصيله بقوله: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى** ﴾ [الليل :5]الآية ليتمكن تفصيله في الذهن» [60]، فالإجمال الحاصل في قوله ﴿**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**﴾ يشّوق القارئ أو السامع إلى سماع تفاصيله فيما يأتي من آيات .

والأظهر أنّ التشويق تحقق من افتتاح السورة بالقسم ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى**﴾[الليل :1]، ثم تطويله بقَسَمين آخرين ﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى**﴾[الليل :2-3]، ثم الإتيان بجواب القسم مجملًا وهو مؤكد بـ (إنّ) وباللام المزحلقة ﴿**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**﴾. فإنّ كل هذه المقدمات تجعل النفس تائقة مشتاقة إلى علم تفاصيل الخبر الذي اشتمل على أمرين في غاية الجسامة، أحدهما ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى**﴾ [الليل :4-7]، والآخر ﴿**وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ [الليل :8- 10] .

ومنه أيضا قول ابن عاشور وقت فسّر قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى**﴾ [غافر :36-37]، قال: «وانتصب: ﴿**أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ**﴾ على البدل المطابق لقوله: ﴿**الْأَسْبَابَ**﴾ وجيء بهذا الأسلوب من الإجمال ثم التفصيل للتشويق إلى المراد بالأسباب تفخيماً لشأنها وشأنِ عمله لأنه أمرٌ عجيب ليورَدَ

على نفس متشوقة إلى معرفته وهي نفس ﴿**هَامَانُ**﴾»[61]. فالتشويق حصل في نفس هامان طلبًا لمعرفة الأسباب التي أجملها فرعون بقوله ﴿**لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ**﴾، فلمّا قال فرعون ﴿**أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ**﴾ فصّل البدلُ المطابقُ ما جاء مجملاً في المبدل منه.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة التشويقية الماتعة في رحاب آي الذكر الحكيم وصل بنا المطاف إلى الوقوف على أهم النتائج التي توصل لها البحث، وهي ما يأتي :

1. لم يكن من وَكْدِ ابن عاشور أنّ يضع حدًا للتشويق ؛ لا سيما وأنّ (التحرير والتنوير) كتابٌ تفسيريٌ في المقام الأول، وليس كتابًا خاصًا بصياغة المصطلحات وحدّها.

2. يكاد يكون ابن عاشور منفردًا في ذكر أكثر مواطن التشويق المتقدم ذكرها.

3. نحا ابن عاشور منحى نحويًا وبلاغيًا في الكشف عن مواطن التشويق، وكان توظيفه للنحو أكثر من توظيفه للبلاغة .

4. كانت آراء ابن عاشور راجحة في معظم مواطن التشويق التي ذكرها، على حين أنّ بعضها كان مرجوحًا.

5. كشف ابن عاشور عن سلطة السياق العليا وفاعليته الكبرى في تحديد الأساليب المقصود بها التشويق، وما ينتج عن ذلك من غايات دلالية منشودة .

6. جاءت الأساليب الدالة على التشويق في معظمها مخالفة للأصول النحوية، وهذا ما يتضح جليًا من الإشارة بـ(كذلك) إلى مشارٍ إليه متأخر عنها، ومن عود الضمير على متأخر، ومن تقديم المسند على المسند إليه، وغير ذلك .

7. إنّ ما عدّه ابن عاشور تشويقًا لا يمكن أن ينطبق على كل ما شابهه من أساليب، إذ لا يمكن القياس عليه .

* هوامش البحث *

(1) العين :184/5، (شوق) .
(2) تهذيب اللغة :169/9، (شوق) .
(3) العين :184/5، (شوق) .
(4) مقاييس اللغة: 229/3، (شوق).
(5) مقاييس اللغة: 229/3، (شوق).
(6) أساليب التشويق البلاغية في الأحاديث النبوية من خلال الصحيحين: 42.
(7) المصدر نفسه :46.
(8) المصدر نفسه :46..
(9) تفسير التحرير والتنوير:16/2-17.
(10) المصدر نفسه: 16/2-17.
(11) ينظر: التبيان في تفسير القرآن :7/2.
(12) ينظر: تفسير البغوي: 122/1.
(13) ينظر: الكشاف:224/1، وفتح القدير:150/1.
(14) تفسير أبي السعود: 172/1.
(15) روح المعاني: 2/ 3.
(16) كتاب أمالي ابن الحاجب:521/2.
(17) تفسير التحرير والتنوير:212/11 .
(18) ينظر: الكشاف :337/2، والتفسير الكبير:98/17،و تفسير البيضاوي:205/3، وتفسير السمعاني:391/2، وتفسير أبي السعود:157/4، وروح المعاني:143/11.
(19) تفسير التحرير والتنوير:309/22.
(20) المقتضب: 46/2.
(21) التعريفات: 166.
(22) تفسير التحرير والتنوير:89/13-90.
(23) المصدر نفسه :89/13-90.
(24) معجم المصطلحات النحوية والصرفية :1.
(25) المصدر نفسه :9.

(26) تفسير التحرير والتنوير:260/1.
(27) التسهيل لعلوم التنزيل :37/1.
(28) تفسير التحرير والتنوير:317/22.
(29) المصدر نفسه:409/30-410.
(30) اللباب في علل البناء والإعراب: 502/1.
(31) تفسير التحرير والتنوير:254/14.
(32) المصدر نفسه :399/23.
(33) المصدر نفسه :304/14.
(34) ينظر: شرح قطر الندى :178، مغني اللبيب :853.
(35) تفسير التحرير والتنوير:195/16.
(36) المصدر نفسه:294/30.
(37) المصدر نفسه:294/30.
(38) ينظر: تفسير أبي السعود:148/9، وروح المعاني: 122/30، وفتح القدير:428/5.
(39) ينظر: تفسير القرطبي :25/20، وتفسير السمعاني:212/6، وتفسير السمرقندي :551/3، وأضواء البيان :508/8.
(40) تفسير أبي السعود:148/9.
(41) تفسير التحرير والتنوير:346/30.
(42) ينظر: التبيان في تفسير القرآن :337/10-338، وتفسير القرطبي:59/20،وتفسير الواحدي:1203/2، وتفسير البغوي :488/4،وفتح القدير:442/5، وزاد المسير:126/9، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:483/5.
(43) تفسير التحرير والتنوير:193/28-194.
(44) المصدر نفسه :193/28-194.
(45) ينظر معاني القرآن، للفراء:
(46) التفسير الكبير :274/29.
(47) تفسير التحرير والتنوير:191/27.
(48) ينظر: تفسير البيضاوي: 266/5.
(49) ينظر: فتح القدير:123/5، وروح المعاني :83/27.
(50) ينظر: تفسير أبي السعود:8/ 170، وزاد المسير: 94/8.
(51) تفسير التحرير والتنوير:6/30.
(52) المصدر نفسه:9/30.
(53) التعريفات :85.
(54) المصدر نفسه: 46.

(55) المصدر نفسه: 46.
(56) تفسير التحرير والتنوير:205/21.
(57) المصدر نفسه :312/30.
(58) المصدر نفسه :46/16.
(59) الإيضاح في علوم البلاغة: 186.
(60) تفسير التحرير والتنوير:379/30.
(61) المصدر نفسه: 146/24.

* المصادر والمراجع *

القرآن الكريم
1. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .
2. أساليب التشويق البلاغية في الأحاديث النبوية من خلال الصحيحين، عبد الحفيظ أحمد أديديمج، (رسالة ماجستير)، الجامعة الإسلامية، كلية اللغة العربية، السعودية.
3. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار النشر: دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - 1415هـ - 1995م.
4. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: الشيخ بهيج غزاوي، دار النشر: دار إحياء العلوم - بيروت، ط1419،4هـ 1998م .
5. التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، تحقيق أحمد حبيب العاملي، بيروت ،ط1، 2010م .
6. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت، ط1، 1405هـ.
7. تفسير البغوي، البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ،دار النشر: دار المعرفة – بيروت .
8. تفسير البيضاوي، البيضاوي، دار النشر: دار الفكر – بيروت.
9. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر .
10. تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار النشر: دار الفكر – بيروت .
11. تفسير القرآن، منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم، دار النشر: دار الوطن - الرياض، ط1 - 1418هـ- 1997م .
12. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار النشر: دار الكتب العلمية -

بيروت، ط: 1، 1421هـ - 2000م .
13. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ،ط1، 2001م.
14. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار النشر: دار الشعب – القاهرة، دار النشر: دار الجيل - بيروت، ط1.
15. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي البغدادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
16. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار النشر: المكتب الإسلامي – بيروت ،ط3، - 1404هـ .
17. شرح قطر الندى وبل الصدى، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد - القاهرة ،ط1383،11هـ.
18. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار النشر: دار الفكر - بيروت .
19. كتاب أمالي ابن الحاجب، ابن الحاجب، تحقيق: فخر صالح قدارة ،دار الجيل-لبنان.
20. كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، محمد الغرناطي الكلبي، دار النشر: دار الكتاب العربي - لبنان، ط:4، 1403هـ- 1983م.
21. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د مهدي المخزومي / د إبراهيم السامرائي، دار النشر: دار ومكتبة الهلال .
22. كتاب سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون .
23. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم الزمخشري تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
24. اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري، تحقيق: د. عبد الإله النبهان ،دار النشر: دار الفكر - دمشق ،ط1416،1هـ 1995م.
25. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار النشر: دار صادر – بيروت ط1.
26. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ،دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان ،ط1، 1413هـ- 1993م.
27. معاني القرآن، أو زكريا يحيى الفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار.
28. معجم المصطلحات النحوية والصرفية، د. محمد سمير اللبدي، الناشر: مؤسسة الرسالة-بيروت، ط1، 1985م .
29. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار النشر: دار الجيل - بيروت – لبنان ،ط2 ،1420هـ - 1999م.
30. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: د. مازن المبارك،

محمد علي حمد الله، دار النشر: دار الفكر – دمشق،ط6، 1985.
31. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار النشر: دار القلم , الدار الشامية - دمشق , بيروت ،ط1، 1415.